النفاق والمنافقين

(الشيخ محمد ندا)

الحمد لله رب العالمين... نحمده ونستعينه... ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا... من عمل صالحًا فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلامٍ للعبيد... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له... له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير. وأشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدًا رسول الله، الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير... اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه وساروا على منهاجه فكانوا هم الفائزين.

أما بـــعـــد

فإن المجتمعات البشرية لا تخلو من عناصر ثلاثة: منهم **(مؤمنون يوالي بعضهم بعضًا، وكافرون يوالي بعضهم بعضًا كذلك، ومنافقون بعضهم من بعض)**. والمنافقون بالذات يحتاجون إلى كشف النقاب عنهم وإبراز ملامحهم حتى يحذرهم الناس ويتدبروا أمورهم معهم، لأنهم أصل الفساد في الأرض، وما وجدوا في أمة إلا أفسدوها، وما كثروا في مجتمع إلا جروا عليه الهزائم. وما البلايا والنكبات التي نعيشها إلا بسبب هؤلاء المنافقين! وخير ما يكشف النقاب عن هؤلاء الناس هو القرآن الكريم، فلقد ألقى أضواء كاشفة على النفاق والمنافقين.

ذكر أوصافهم وأحوالهم وتصرفاتهم، بحيث يستطيع كل من يتدبر آيات القرآن في هذا الشأن أن يتعرف على أحوالهم، وأن يأخذ بتلبيب (يحذر) أيًّا منهم، فيقول: هذا منافق فاحذروه، وذاك مداهن فأدبوه. ولقد تتبعت القرآن الكريم سورةً سورة وآيةً آية، فوجدته قد ذكر المنافقين وصفاتهم وأحوالهم فيما يقرب من مائتي آية، موزعة على ثماني عشرة سورة، منها سورة بهذا الاسم: سورة **(المنافقون)**. وهذا يعني أن قضية النفاق كانت من أخطر القضايا التي هددت المجتمع الإسلامي في مهده، وما زالت تهدد أي مجتمع مهما بلغ من القوة والتماسك.

ولقد قمت بتقسيم تلك الآيات إلى وحدات موضوعية، فوجدت صفاتهم تتنوع إلى أنواع مختلفة: فلهم باطن يخالف الظاهر، وعندهم رياء وأثرة وجبن وتلون كالحرباء. وهم يثبطون الهمم ويفلون العزائم ويفشون الأسرار وينشرون الأراجيف ويوالون الأعداء، ويرتكبون الآثام ثم يرمون بها الأبرياء ويفترون الأكاذيب. زيادة على ذلك، ينكثون العهد ويسخرون من الشرائع. وقد يؤدون العبادات، لكنهم يؤدونها بغرض الحصول على مصلحة من ورائها، سواء كانت مصلحة مادية أو أدبية، ويتسترون وراء العبادات لتنفيذ مخططاتهم الدنيئة. ولذلك، استحق هؤلاء المنافقون أن يكون مصيرهم أسوأ مصير.

كما قال الله تعالى: **(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)**. ويحق لسائل أن يسأل: متى ظهر النفاق في هذه الدنيا؟ لكننا لن نستطيع أبدًا أن نحدد زمنًا معينًا لظهور النفاق في هذه الدنيا. وكل ما نقوله في هذا الشأن أن كل إنسان فيه صفات خير وصفات شر، كما قال الله تعالى: **(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)**. والنفاق من صفات الشر التي تظهر حينما تتهيأ لها أسباب الظهور.

فيأتي السؤال: ومتى ظهر النفاق إذن في تاريخ الإسلام بالذات؟ وهنا نستطيع أن نجيب بيقين أن النفاق لم يكن له وجود أو لم يكن له أي أثر في مكة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة. نعم قبل الهجرة، لم يكن هناك نفاق ولا منافقون على الإطلاق. فالإنسان إما مؤمن وإما كافر، ولا ثالث لهذين على الإطلاق، وذلك لأن النفاق لا يوجد أو لا يظهر إلا حيث توجد القوة المهيمنة، أو الرجل الذي يرهب جانبه، أو الدولة القوية التي يخشى بأسها وسطوتها، أو يراد الانتفاع من ورائها أو المداراة من سطوتها، أو التستر للدس والوقيعة في تلك الدولة القوية. وكل هذه الأسباب لم تكن موجودة في مكة على الإطلاق، ذلك لأن المسلمين لم تكن لهم دولة، ولم يكن لهم سلطان أو سيادة ولا قوة، ولم يكن لهم مخافة، وليس لهم منصب ولا سطوة في هذه الحياة. فعلى أي شيء ينافقهم الناس؟

لماذا ينافق الناس هؤلاء المسلمين وهم لا قوة لهم ولا سطوة ولا جاه ولا مال ولا منصب ولا شيء من ذلك على الإطلاق؟ لا يمكن إذن أن يكون هناك نفاق، لأن كل من يعتنق الإسلام في هذه الفترة إنما كان يقدم عليه وهو يعلم أنه يقدم على أخطار محدقة، وعلى نبي ومسلمين مطاردين من مكان إلى آخر. وهو يسلم ويعلم مقدار المغارم التي تنتظره من ولاء دينه، فهو يقدم عليه بيقين وينتظر أن يموت غدًا أو بعد غد من التعذيب أو نحو ذلك، ولا ينظر إلى أي غنيمة دنيوية على الإطلاق. الغنيمة الوحيدة التي يرجوها كل من يدخل في هذا الدين ويتبع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم هي أن يفوز برضاء الله وأن يفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، كما وعد الله المتقين: **(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)**. وكفى بذلك شرفًا وغنيمة لمن كان يدخل في الدين ويتبع سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم.

إذن، لا وجود للنفاق في مكة قبل الهجرة. وكذلك لم يظهر النفاق في المدينة بعد الهجرة مباشرة، لأن الدولة الإسلامية كانت ما تزال وليدة في مهدها، ليس لها قوة ولا منعة في الأرض. بل إن قوى الشر والعدوان كانت كثيرة حول المسلمين، بل في داخل المدينة نفسها. ففي المدينة المنورة كان يوجد مشركون لهم قوة ولهم بأس، ويوجد كذلك طوائف من اليهود لهم قوة ولهم منعة كذلك، والزعامة في الجزيرة العربية كانت لقريش، والمدينة لم تدخل بعد في منافسة للزعامة مع قريش. إذن، القوة والسلطان والمهابة والمنعة كلها عند غير المسلمين. فإذن لا يدخل

هذا الإسلام منافق على الإطلاق. ونستطيع أن نقول بناءً على هذا إن النفاق لم يظهر في المدينة إلا بعد غزوة بدر الكبرى، أي في السنة الثانية للهجرة.

لأن تلك الموقعة المباركة هي التي أظهرت المسلمين بمظهر القوة والمهابة والجلال، ولقد كان النصر الحاسم الذي أحرزه المسلمون يوم بدر بمثابة صدمة عنيفة هزت كيان الأعداء جميعًا. فالمشركون في مكة استخفوا بالأمر في البداية، بل إنهم لم يصدقوا الأخبار التي جاءتهم بنصر المسلمين في غزوة بدر. ولما تبينت لهم الحقيقة صدموا، وصعق بعضهم فهلك في الحال، واستكان المشركون للأمر الواقع. وأما في المدينة، فإن المشركين هناك واليهود كذلك لم يصدقوا الأخبار بهذا الفوز المبين أول ما وصلهم الخبر، وظنوا أن المسلمين يختلقون الأكاذيب حتى رأوا الأسرى يقدمون إلى المدينة مصفدين في الأغلال، فسقط في أيديهم. وبذلك تنوعت مسالك الأعداء في المدينة المنورة وفي غير المدينة. أما المشركون في مكة، فإنهم انطووا على أنفسهم وصار كل تفكيرهم كيف يثأرون من محمد وأصحابه، وكيف يزدادون اضطهادًا لكل من أسلم في مكة. فمن يسلم في هذه الحالة لابد أن يتخفى بإسلامه ويتستر حتى لا يقع تحت طائلة العذاب المهين. وأما في المدينة، فإن العداوة للإسلام أخذت أسلوب الدس والخديعة والمخاتلة والمداهنة لهؤلاء المسلمين، لأن المسلمين أصبحوا قوة، فإذن أصبح ضعاف النفوس هم الذين يحتاجون إلى أن ينافقوا المسلمين.

ولذلك، يقول زيد بن أرقم رضي الله عنه: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يعفو عن المشركين وأهل الكتاب ويصفح عنهم تبعًا لأمر **الله تعالى**: **(فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)**." فلما نصر الله المسلمين في غزوة بدر، قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين، وجماعة من اليهود: "إن هذا الأمر، أي هذا الدين، قد توجه..." أي أصبح له وجاهة وأصبح له قوة، وأنه سوف يستمر في الظهور، فبايعوا محمدًا على الإسلام. فأسلموا في الظاهر وأضمروا الكفر والنفاق حسدًا وحقدًا على المسلمين، وكرهاً للإسلام ولنبي الإسلام. وهنا بدأ ظهور النفاق بالفعل في المدينة المنورة بعد غزوة بدر الكبرى.

وفي ذلك **يقول الله تعالى**: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)**.

وهذا يحتاج إلى توضيح وبيان، وموعدنا الجمعة الأولى من الشهر القادم إن كان في العمر بقية، والله ولي التوفيق. فاستغفروا الله لعلكم ترحمون.